

المنفى

عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

منزله في حديقة البرتقال . ولما دخلنا
المزل المطلة شرفاته على البحر خرج لاستقبالنا
رجل طويل القامة طويل اللحية . وبعد أن
سلمت عليه طلبت أن يقبل ضيافتي ، فد إلى
يده وقال وهو يتسم : « تفضل أيها السيد
أنت هنا في منزلك »

ثم قادني إلى غرفة خصصها لي . ووضع تحت
تصرفي خادماً . ورأيت من كرمه ماداني على حسن
تربيته . وقال وهو يتركني : « إننا سنتناول العشاء
في الطابق الأرضي بعد أن تستريح وتغير ثيابك »
وتعشنا في غرفة تطل على البحر . وتكلمت
عن هذه الجهة الجميلة النائية الفنية . فقال لي : « نعم
هي جميلة غنية . ولكن لا يمكن أن يسر الانسان
في بلادهم ما كان جمالها وغناها ما دامت بعيدة عن
وطنه الذي يحبه »

قلت : « أنت آسف على مغادرتك فرنسا ؟ »

فقال : « إنني آسف على مغادرتي باريس »

قلت : « إذن فلماذا لا تعود ؟ »

فقال : « إنني سأعود »

ثم أخذنا نتحدث عن باريس وعن شوارعها
الواسعة الطويلة . وكان كلامه عنها كلام من يعرفها
حق المعرفة . وذكر لي عدة أسماء لا ينساها من
زار الأحياء التي فيها مسارح الفودفيل في باريس
قال : « من الذين يقابلهم الانسان في تورينى
الآن ؟ »

فقلت : « هم الذين كانوا فيها دائماً عدا من

مات منهم »

قلت ذلك ثم سكت فجاء لاني نظرت إليه نظرة
بعثت في نفسي ذكرى . وأدركت أنني كنت رأيته
ولكن متى وأين ؟

وكان يبدو عليه التعب والحزن على الرغم من

لن أذكر اسم المكان ، ولن أذكر اسم بطل
القصة . أما الأول فهو بعيد جداً في جهة خصبة
حارة على شاطئ البحر . وقد كنا نسير بقرب ذلك
الشاطئ فنرى عن يميننا مزارع القمح الخضراء وعن
يسارنا أمواج البحر التي تهتز تحت أشعة الشمس .
وكانت الأزاهير الغضة نابضة على حافة البحر مطلة على
مائه . وكان اليوم شديد الحر ولكن جوه زكي
العرف قد تشبع بروائح التربة الخصبة والأعشاب
والأزاهير والماء ، فكأننا كنا نستنشق مع الهواء
عبير الحياة المطر

وقيل لنا إننا سنكون في المساء ضيوفاً على
رجل فرنسي يقيم في وسط بستان البرتقال . ولم
أكن أعرف هذا الرجل ولا أعرف عنه سوى أنه
جاء إلى هذه الجهة منذ عشرة أعوام فاشترى أرضاً
واسعة جمل بعضها كرمه وبعضها مزرعة برتقال
وسائرهما خصصه لزراعة القمح . وأقام من ذلك
المهد في أرضه بعمل كادحاً مجتهداً . وكان يزيد
نطاق أرضه اتساعاً كلما مر شهر أو عام فحصل على
ثروة واسعة بهمة لا تعرف الفتور

وكان جيرانه يقولون : إنه يستيقظ قبل الفجر
ويظل يعمل في حقوله إلى هزيع من الليل وجعل
نصب عينيه فكرة واحدة لا يمكن إرواء ظمئها ،
وهي فكرة الحصول على الثروة

وكانت الشمس قد غربت عندما وصلنا إلى

وكانت غرف المنزل واسعة ولكنها تكاد تكون خالية من الأثاث وشكلها يدل على أنها لم تستعمل قط . وكان في إحدى هذه الغرف أوان وزجاجات خالية متروكة على الأرض . وقد علفت على الحائط بندقتان وقصبة لصيد السمك ، وبعض الفئوس

وقد قال صاحب المنزل وهو يربني هذه الأشياء المبعثرة : « أليس هذا المنزل أشبه بسجون المنفيين منه بالمساكن ؟ »

وكنيت أتخيل لو لم يقل ذلك أنني في بعض الحوانيت التي تباع بها السلع المستعملة . وكان مما رأيته بين هذه السلع دبوس شعر مما تستعمله السيدات لتثبيت القبعات فوقفت أمامه وقد بدت على « علام الاستغراب ، فوضع مضبني يده على كتفي وقال : « إن هذا الدبوس هو الشيء الوحيد الذي أحرص عليه في هذا المنزل — لا بل إن حرصي عليه يزيد عن حرصي على حياتي »

ففكرت لكي أجد كلمة مناسبة أقولها فلم تستعني الذاكرة إلا بقولي : « أظنك عانيت في الحياة كثيراً بسبب امرأة » فقال : « إنني أعاني مالم يعاناه أتعس إنسان . وإنني سأسألك عن اسم آخر ولكن إذا قلت لي إن صاحبه قد مات كما قلت لما سألتك عن استير فاني سأقضي على حياتي في هذا اليوم » ومشى فمشيت معه إلى غرفة أخرى وكانت الشمس قد غابت . ونظر إلي وقال : « هل جان دي لامور لا تزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « نعم والله » فقال : « وهل تعرفها ؟ » قلت : « نعم » فتردد لحظة ثم قال بإسنان متلثم : « هل معرفتك إياها إلى درجة تسقط التكلف ؟ » قلت : « لا » فقال : « حدثني عنها »

قلت : « ولكن ليس عندي ما يستحق التحدث

علام القوة وصلابة المزم . وكانت لحبته الطويلة متدلّية إلى صدره . وكان بمسكها بيده أحياناً أثناء الكلام . وهو خفيف شعر الرأس غليظ الحاجبين كبير الشاربين وفي خديه بقع مملوءة بالشعر ملحقة بلحيته

وكانت الشمس تغرب فيما وراء البحر الذي نطل عليه مرسلة شمامها الذهبي إلى الشاطئ . وكان البرتقال الذهبي يبعث رائحة قوية جداً في جو هذا المساء

كان مضبني لا ينظر إلا نحوى . وكان ينظر إليّ عددًا في بصره . ثم وقع نظري ونظره على صورة معلقة في الحائط تمثل جهة في شارع دروت فسألني : « هل تعرف هذا الشارع ؟ »

قلت : نعم . فسألني : « هل تعرف بوتربيل ؟ »

قلت : « أعرفه حق المعرفة »

فقال : « هل تغير كثيراً ؟ »

قلت : « لا . بل لا يزال كما هو »

فقال : « وهل تعرف لاريديامي ؟ »

قلت : « وهذا أيضاً لم يزل كما كان »

فقال : « والنساء ؟ هل تعرفهن ؟ قل لي شيئاً

عن سوزان فرنز »

قلت : « إنها لا تزال كما كانت في شرح الشباب »

فقال : « وصوفيا أستير ؟ »

قلت : « ماتت »

فقال : « مسكينة أستير .. هل .. هل تعرف .. »

ولكنه سكت فجأة وتغير لون وجهه وقال

بصوت غير صوته الأول : « كان خيراً ألا أتكلم

إنها ذكريات مؤلمة »

ثم وقف وكأنه يريد أن يغير اتجاه أفكاره

فسألني هل أحب أن أزور بقية المنزل ؟

ثم سار فتبعته

دافماً آخر إلى تقبيلها فددت يدي إليها لأعانقها وأحنقها في نفس الحين . وقد كان في عينها غير الجمال قوة أخرى قاسية . ولعل هذا هو السبب الأكبر لحبي إياها وكان في نفوسها زيادة لا تبعث في النفس عاطفة غير الجنون

« ولقد سكرت وانتشيت وجنتت بحبها وعمقتها . ولما كنت أمشي معها في الطريق كانت تنظر إلى كل رجل تمرُّ به نظرة كأنها بها تسلم نفسها إليه ؛ وكنت أشعر وأنا أسايرها أنها من متعلقات كل إنسان ، وأنها خلقت كذلك رغم أنفها ورغم أنني ورغم أنوف الناس جميعاً

« أنفهم يا عزيزي معنى ذلك ؟
« تستطيع إذا فهمته أن تتصور أى عذاب كنت أعانيه ؟

« لقد كنت أذهب معها إلى المسرح أو إلى المطعم فأحس بأن نظرات الناس إليها عناق وتقبيل ؛ وكنت أعتقد أنني إذا غبت عنها جاء الناس جميعاً ليجلسوا إليها . ولقد صرّت عشرة أعوام لم أرها فيها ولكن حبي لها لا يزال كما كان »

« وكان الظلام قد اشتد في هذا الوقت وزاد تصاعد الروائح المطيرة من حديقة البرتقال وسألته :
« وهل تريد أن تراها مرة أخرى ؟ »

فقال : « إنني أملك الآن ما يربو على الثمانمائة ألف فرنك . فعندما تصل ثروتى إلى مليون فاني سأبيع كل شيء وأعود إلى باريس ويكفينى من العمر بعد ذلك عام واحد أقضيه معها في أحلام رائمة كأحلامي السابقة

قلت : « ثم ماذا ؟ » فقال : « ثم أودع الحياة مسروراً أو أطلب إليها أن تستخدمنى سائقاً لسيارتها ! »
« عجب اللطيف النشار

به سوى أنها من أجمل الباريسيات وأشهرهن في الأوساط وهي تيميش كما تيميش الأميرات ، وهذا كل ما أعرفه عنها »

فقال : « هذه هي التي أحبها . وقد حاولت قتلها خمس مرات أو أكثر من هذا العدد . وحاولت هي ففأعيني بهذا الدبوس الذي رأيته الآن . أنظر إلى أثر الالتحام الذي تحت عيني اليسرى . إنه من أثر هذا الدبوس . وكان كلانا يحب الآخر ، وقد لا تكون على استعداد لفهم ذلك ، فإن الحب الشائع بين الناس حب بسيط . ولكن الحب القوي لا يخلو من العنف . والمحبون من هذا النوع يبعد أحدهما الآخر ولكنه يتوق إلى قتله .

« وقد أهلكنى هذه الفتاة في ثلاثة أعوام أضمت في خلالها أربعة ملايين من الفرنكات عملاً لابتسامات حلوة ونظرات فتاة . وقد وجدت فيها شيئاً لا يقبل المقاومة ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ لست أدري هل هو قوة عينها ؟ هل هو عدوبة ابتسامتها ؟ هل هو صوتها ؟ لقد عشت ثلاثة أعوام عانيت فيها من الآلام ما لم يمانه إنسان . وكانت تحذعني وتخونني لا شيء سوى الرغبة في خيانتى وخداعي ، فلما استكشفت ذلك وخطبتها قالت لي : « هل نحن متزوجان ؟ » ولما تركتها وجئت إلى هنا استطعت أن أفهمها أكثر من قبل فهي لا تستطيع أن تيميش دون أن تخدع »

قال ذلك ثم سكت بضع دقائق استمر بعدها يقول : « فلما أنفقت عليها آخر درهم قالت لي : « أنت ترى يا عزيزي أنني أحبك أكثر مما أحب أى إنسان آخر ، ولكننى أريد أن أعيش ولا أستطيع الحياة مع الفقر . ولذلك لا أرى بداً من أن نفترق »

ولقد وجدت من نفسى عندما سمعت ذلك